

الفصل الثالث: المؤهلات التي يجب توفرها في أي قائد

بجانب المعلومات والقابليات العسكرية التي يجب توفرها لأي قائد عسكري يجب توفر كل صفات الزعامة فيه، لأن القائد العسكري زعيم في الوقت نفسه وسنقوم بتلخيص هذه الصفات:

١. على كل زعيم أن يملك قابلية إعطاء القرارات الصحيحة. يعد إعطاء القرار بمثابة الأسس للأعمال التي يجب إنجازها، ولكن كما يمكن إعطاء قرار غير صائب كذلك من المحتمل أن يكون القرار خاطئاً من ناحية التوقيت كذلك، فالقرارات المتأخرة أو المتقدمة عن أوقاتها الصحيحة تعد قرارات خاطئة، لذا فإن القرار الصائب الذي يتخذه أي زعيم يتميز عن أي قرار آخر اعتيادي بأنه قرار صائب متخذ في وقته المناسب تماماً.

هناك أوقات مهمة يجب فيها اتخاذ قرار سريع، والزعيم يتميز عن الآخرين في مثل هذه الأوقات بقابليته على اتخاذ القرار السريع الذكي والصائب، هذا مع أن القرارات المتخذة على عجل تكون في الغالب قرارات خاطئة لأن العجلة تكون عادة ضد الصواب ويصعب أن يوجدًا معًا، والزعيم هو رجل مثل هذه الأوقات الصعبة حيث يستطيع الجمع بين هذين الضدين.

٢. على كل زعيم أن يملك شجاعة فطرية.. من لم يكن شجاعاً لا يمكن أن يكون زعيماً، فعلى الزعيم أن يكون شجاعاً رابط الجأش قوي القلب، فقد يأتي يوم يبقى فيه وحيداً وشجاعته الفطرية تنقذه آنذاك من التذلل، في مثل هذه الأوقات التي يضطر فيها الزعيم والقائد إلى تحمل تبعات دعوته وحده عليه أن يتصرف وكأن الآلاف خلفه، وذلك لكي يستطيع الوصول إلى هدفه.

أجل، على القائد والزعيم ألا يخاف من الموت أبداً. فالذي يخاف من كل شيء ويخشى من كل خطوة ومن كل أمر لا يمكن أن يكون قائداً ينظم ويدير جماعته.

٣. القائد رجل الإرادة التي لا تلين، فليس من الممكن له الرجوع عن قراره ولا تبديل إيمانه وعقيدته ولا إعطاء أي تنازل عنها، فالأمل صديقه الذي لا يفارقه، أما اليأس فعدوه الكبير الذي لا يقربه حتى في الأحلام، فالعراقيل الموجودة أمامه كانت كبيرة لا تشبه عن

عزمه ولا تضعف من إرادته، فهو يملك قوة معنوية وروحية يغلب بها اليأس، وإلا فكيف يكون باستطاعته جذب الجماهير خلفه؟ أجل، إن القائد شخص ذو إرادة فولاذية لا تلين.

٤. القائد شخص يدرك مسؤولياته إدراكًا جيدًا، وشعور المسؤولية هذا جزء لا يتجزأ من كيانه، فلو تفرق عنه جميع من حوله واحدًا إثر واحد فهو يبقى مستعدًا لتحمل التبعات الثقيلة لدعوته حتى النهاية وإن أصبح وحيدًا. أجل، هذا هو مقدار شعوره بالمسؤولية، وليس هناك أمر أو عائق يستطيع إضعاف هذا الشعور الذي يتحول عنده إلى قناعة فكرية ثابتة.

٥. على الزعيم أن يكون بعيد النظر يتجاوز زمنه، ويكتشف مسار الحوادث المستقبلية بحدسه وبفكره الثاقب ويراهما مثلما رأى الأحداث الماضية ويعطي أحكامه وقراراته على هذا الأساس. ولكن إن كانت الأيام تثبت على الدوام عكس ما أمله وما توقعه وتنقض حدسه فليس في إمكانه إقناع من برأسه مسكة من عقل.

على الزعيم أن يرى المستقبل لكي تكون قراراته نهائية، وإلا اضطر إلى تبديل قراراته على الدوام حسب تقلب الأيام، وهذا سيولد الخلاف الفكري والشقاق بين جماعته، وهذا يؤدي إلى انهدام الجماعة. فالقرارات المتغيرة على الدوام ستؤدي إلى تفتيت الجماعة إلى أفراد كل منهم يحمل فكرًا خاصًا به. إذن، فعلى القائد أن يكون ذا بصيرة نافذة وفراصة حادة.

٦. على القائد أن يكون إنسانًا مستقرًا من الناحية النفسية لا يتأثر ولا يغير وضعه تحت تأثير أي حادثة، فلا يغيره أروع النجاحات ولا يغيره أكبر الانتصارات، وعندما يواجهه الفشل يقوم بمحاسبة نفسه.

القائد هو الشخص الذي بُعد عن وضاعة النفس واستمر في طرز حياته البسطة المتقشفة، يعيش حياته بتناغم موسيقي هادئ، بل إن القائد الجيد هو الذي ينهي حياته بمستوى أعلى من البداية التي بدأها، وهذا لا يتم إلا إذا كان القائد يملك نفسًا متواضعة تمام التواضع لكي لا ينسى أيامه الأولى ولا أصدقائه السابقين.

٧. القائد شخص يعرف التقييم الجيد للأفراد، ويعرف أكثر من غيره نوعية الأفراد الموجودين تحت قيادته، ويعرف أين يستعمل ومن يستعمل منهم وفي تحقيق أي هدف. والشخص الذي لا يعرف توزيع الأعمال حسب القابليات، ولا يسجل نجاحًا في هذا الأمر لا يستطيع أن يكون ليس فقط قائدًا بل حتى إداريًا جيدًا.

على القائد أن يودع كل عمل إلى أليق الأشخاص لذلك العمل وأكثرهم قابلية في إنجاز ذلك العمل. فالقائد أفضل من يقوم بهذا التقييم ويقوم بتوظيف القابليات والاستفادة منها على الدوام. وهو عادة لا يضطر إلى الرجوع عن قراراته السابقة في هذا المجال لأنه يملك بوصلة حساسة في تقييم القابليات ووزن الرجال، طبعًا عدا استثناءات قليلة لا يمكن لأي إنسان التخلص منها.

٨. القائد هو الشخص الذي يحب رعيته بحيث أن كل فرد منهم يشعر أنه أقرب إلى قلبه من الآخرين، وهو الشخص الذي تقابله رعيته أيضًا بالحب.. ثقته بالرعية وثقة رعيته به تامة.

٩. لا يوجد في أي مرحلة من مراحل حياته شيء يمكن إشهارة في وجهه كتهمة، فماضيه معروف كحاضره، وماضيه نقي كحاضره، ولو قام أحد بتدقيق ماضيه -سواء بنية سيئة أو حسنة- لما وجد فيه ما يخجل منه، ولو أصبحت الدنيا بأجمعها خصما له لما استطاعت إلقاء أي ظل من الشك على عفته وسمعته.. طبعًا إن تم الالتزام بالصدق ولم يسلكوا سبل الكذب والافتراء.

١٠. القائد شخص له جوانب عديدة وميزات كثيرة، واستطاع التميز في مجتمعه في كل جانب من هذه الجوانب، ولا يمكن لأحد أن يجد أي عيب في تصرفاته وسلوكه، وكلما دقت جوانبه المختلفة تبين هذا الأمر أكثر فأكثر.

لقد حفل التاريخ الإنساني بالعديد من هؤلاء القادة العظام، ولكن لا يوجد أي قائد جمع في نفسه كل هذه الصفات التي عدناها، أما القادة الذين جمعوا بعض هذه الصفات فقلة أيضًا.

"الإسكندر الكبير"، "هنيئيل"، "نابوليون"، "هتلر"، ومن تاريخنا: "محمد الفاتح"، "السلطان سليم الأول"، "السلطان بايزيد" والملقب بالصاعقة، "جلال الدين خرم شاه"، "صلاح الدين الأيوبي"، "طارق بن زياد"، "الشيخ شامل" الذي حارب الروس مدة أربعين عامًا... لا شك أن هؤلاء كانوا قادة عظامًا، غير أننا إن قمنا بتقييمهم من زاوية الصفات التي سردناها لوجدنا أنه لا يمكن مقارنتهم أبدًا بقائد القادة محمد ﷺ.

أجل، هناك شخص واحد فقط في العالم كله استطاع أن يجمع فيه جميع صفات القيادة الناجحة دون أي نقص وفي أعلى الذرى وهو محمد ﷺ.. ذلك لأنه كان رسول الله، وكان تحت رعاية الله وتأييده وتوفيقه في جميع الإجراءات التي اتخذها طوال حياته.

أ- نظرة سريعة على حياته

كانت جميع قراراته سريعة وصائبة جدًا، فلم ينتج الفشل والخذلان عن أي قرار اتخذه، وقد سبق وأن أعطينا أمثلة مفصلة حول هذا الأمر ولاسيما القرارات الصائبة التي اتخذها في معركتي أحد وحُنين والتي أنقذت جيشه من هزائم محققة وأوصلته إلى انتصارات مبيّنة. كان شخصًا شجاعًا بفطرته، سلك طريقًا طويلًا وصعبًا تحدى به العالم أجمع، واستمر في طريقه هذا دون خوف لا من أي فرد ولا من أي جماعة، بل كان عندما تبدو بوادر الهزيمة في جيشه يسوق فرسه ويهجم بنفسه على الأعداء دون أي خوف ولا وجل حتى أن فارسًا بشجاعة علي بن أبي طالب ؓ كان يقول: "لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا."^(١)

يورد البخاري عن جابر بن عبد الله ؓ أنه غزا مع رسول الله ﷺ قَبْلَ نَجْدٍ، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرَةٍ وعلق بها سيفه ونمنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا، وإذا عنده أعرابي فقال: «إن هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله» (ثلاثًا)، ولم يعاقبه وجلس.^(٢) هذه هي شجاعة رسول الله ﷺ، وهذا هو مبلغ ثقته بالله واعتماده عليه.

وفزع أهل المدينة يومًا عندما سمعوا صوتًا عظيمًا وخرجوا إلى الدروب لاستطلاع الخبر، دعونا نقرأ الحادثة في البخاري عن أنس ؓ قال: "كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قَبْلَ الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول «لم تُراعوا لم تُراعوا» وهو على فرس لأبي طلحة عُزَيٍّ ما عليه سرج، في عنقه سيف."^(٣)

كان الرسول ﷺ أول من سمع الصوت فامتطى فرس أبي طلحة وتوجه إلى ناحية مصدر الصوت حتى اطمأن إلى عدم وجود أي خطر ورجع. إذن، فالإسراع وحده نحو مصدر صوت أفرع جميع أهل المدينة يبين مدى الشجاعة الفطرية التي كانت موجودة لديه. وعندما خشى أبو بكر ؓ وخاف على حياة الرسول ﷺ وهو في الغار معه بعد أن اقترب

(١) المسند للأمام أحمد، ٨٦/١.

(٢) البخاري، الجهاد ٧٤، المغازي ٣١؛ مسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٧.

(٣) البخاري، الأدب ٣٩؛ ابن ماجه، الجهاد ٩.

منهما المشركون قال له: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!» فهذا بذلك روع أبي بكر الصديق رضي الله عنه. (١)
ثم ألا يعد خروجه من داره والأعداء الذين أعماهم الحقد والغضب يحيطون بها شجاعة كبيرة؟
كان يملك إرادة صلبة لا تهتز ولا يمكن لويها لأنها كانت مرتبطة بمشيئة الله تعالى.

ب- العظمة التي لا يمكن بلوغها

توفي والده قبل أن يولد، أي أصبح يتيمًا وهو في بطن أمه، لذا لم يتعود الاعتماد على الأب وانتظار العون والمساعدة منه وما قد يستتبع هذا الاعتماد من ارتخاء لدى الإنسان، فدعوته كانت موجهة إلى تقوية إرادة الإنسان.

وتوفيت أمه وعمره ست سنوات، بينما تعد الأم أكبر سند للمرء، وليس هناك من يستطيع أخذ مكان الأم في القلب، إذن، فقد سُحب منه هذا السند أيضًا.. كانت الحوادث تهيئه وتربيته، وكانت إرادة فخر الكائنات تقوى بمرور الأيام.
وفي سن الثامنة فقد جده، هذا الجد الذي كان سندًا لمكة ولأهل مكة.. ولكنه أفل هو الآخر.

كان الله تعالى يريد بهذه الحوادث أن يوجهه إلى منبع الثقة ومصدر الأمان.. إلى ذاته تعالى، وأن يسحب من حوله ومن بين يديه كل شيء يمكن أن يلقي ظلاً على هذا الأمر.. أجل، سيعاونه هو، ويسانده هو وسيريه هو تعالى.. صحيح أنه من المحتمل أن هزة كانت تصيب رسول الله ﷺ كلما فقد سندًا، وذلك حسب طبيعته الإنسانية، غير أنه كان يجب أن يتهيأ تمامًا لحمل عبء الوظيفة الكبرى التي بانتظاره وأن تشحن إرادته أكثر فأكثر، وذلك لكي لا يفقد من عزيمته شيئًا ولا يتردد أبدًا وإن سحبت الدنيا جميعها يدها منه وبقي معلقًا في الفراغ وحده. ولوحدث له هذا -وهو لم يحدث في الحقيقة- لما تغير شيء بالنسبة إليه ولا ستمر في طريقه.. ولو لم يكن هذا أمره فكيف كان يستطيع جمع أصحابه بعد كل ما أصابه وأصابهم، ويأمرهم بتعقب جيش العدو؟ كان صاحب إرادة قوية إلى درجة أنه رغم كل الجروح التي أصابته وأصاب أتباعه، ورغم التعب والإرهاق فقد كان في مقدمة جيشه وهو يتعقب جيش العدو.

لا توجد في حياته لحظة ذعر واحدة، ففي اللحظات التي تفرق عنه أصحابه الذين كان كل واحد منهم أسدًا هصورًا ذات اليمين وذات الشمال ثبت هو في مكانه فلم يتأخر خطوة واحدة.. أجل، لقد كانت إرادته فولاذية لا تلين.

(١) البخاري، فضائل أصحاب النبي ٢؛ المسند للأمام أحمد، ٢/١.

لم يبق هناك أذى لم يصبه في مكة، ولكنه لم يهتز.. توفيت زوجته ثم عمه وكانا من أكبر مسانديه، ولكنه لم يصبه أي بأس ولم يظهر عليه أي تردد أو قلق.

عندما ذهب إلى الطائف رموه بالحجارة فأدموا وجهه وألجأوه إلى حائط، وظهر له ملك وقال له إنه مستعد لأن يحمل جبلاً ويطبقه على أهل الطائف إن أراد ذلك، ومع أن الدم كان يسيل على جسده الطاهر إلا أنه رفض هذا..^(١) فما أعجب هذه الإرادة التي لا تتزعزع قيد شعرة عن قرارها.. إذن، يستطيع الإنسان أن يتبع مثل هذا القائد حتى الموت، وأن يفديه بكل شيء، لأنه يعلم جيداً أنه مع مثل هذا القائد لن يقف في منتصف الطريق.. فكيف يمكن السير وراء شخص ضعيف الإرادة يغير رأيه بسرعة ويترك أصدقاءه في وقت الضيق والشدة ويرجع عن قرارات ومبادئ سبق وأن تم التضحية في سبيلها بالآلاف الأشخاص، بينما كان المنتظر منه الاشتراك بالتضحية نفسها؟ كيف يمكن لمثل هذا الشخص أن يكون قائداً وزعيماً؟ ثم أليس أمثال هؤلاء من مدعي الزعامة والقيادة هم السبب في خيبة الرجاء التي يحسها إنساننا اليوم؟

كان ﷺ إنساناً مسؤولياً وبطلاً من أبطال الإرادة الصلبة، فالقرآن الذي أنزل عليه لو أنزل على جبل لتصدع.. لقد كان صاحب إرادة مدهشة. كُلف بمهمة التبليغ.. كان عليه أن يُعْرِفَ بالله تعالى كُلَّ إنسان فرداً فرداً.. كانت مهمة صعبة مثل مهمة تفريغ مياه المحيط بقشرة بيضة، ولكن رسول الله ﷺ أخذ هذه المهمة على عاتقه دون تردد.. فتح القلوب وأدرك قابليات كل فرد من الأفراد.

تبليغ دعوة الإسلام كان هدف وجوده، فلم يكن قلقاً لا حول الدنيا ولا حول الآخرة، فلم يُنْسِه أي شيء هذا الهدف وهذه المسؤولية، لا رؤيته الجنات ولا وصوله إلى قاب قوسين.. فمن ذلك المكان الذي رصفت النجوم تحت أقدامه كالحصى رجع إلى هذه الدنيا المملوءة بالآلام وبالمشقات وأصبح معنا وبيننا، لأنه كان يشعر بمسؤوليته وبوظيفته بكل ذرة من ذرات وجوده وكيانه.. بلغ شعور المسؤولية عنده درجة قال معها ذات يوم: «والله لو ددتُ أنني كنت شجرة تُعَصَّدُ»^(٢) كان هذا هو إدراكه لمسؤولية كونه إنساناً يحمل عبء مهمة ثقيلة ويثن تحت ثقل هذه المسؤولية.. وحاله يوم المحشر امتداد لمسؤوليته هذه، لذا

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ١٦٨/٣.

(٢) تُعَصَّدُ: أي تُقَطَّع.

(٣) ابن ماجه، الزهد ١٩؛ الترمذي، الزهد ٩.

سيقع يوم القيامة ساجداً لله تعالى وهو يقول: «أمتي!... أمتي!»^(١) والحقيقة أنه لم يكن هناك أحد غيره يستطيع حمل مثل هذه المسؤولية، لأنها كانت مسؤولية الإنسانية كلها، أي تمتد من الإنسان الأول حتى الإنسان الأخير.

كان صاحب رؤية وفراصة تتجاوزان أبعاد الزمان والمكان. أهذا فحسب؟.. كانت نظراته تصل إلى عالم الغيب وتبصره، إذ ألم يكن هو الذي شرح لنا وهو في الدنيا عالم الجنة وجهنم والصراط والمحشر بكل تفاصيله؟ كان يرى ويشاهد هذا العالم ثم يصفه لنا^(٢) وكما أكدنا من قبل مراراً فإن الحوادث صدقت كل أقواله التي قالها حول المستقبل ولم تكذبه، فكلما حان الوقت الملائم ظهرت الحادثة التي تنبأ بها، وهناك حوادث تنتظر الظهور.^(٣) ولكي تدرك مدى بُعد نظره انظر إلى صلح الحديبية الذي سبق وأن فصلنا الكلام حوله.

ج- الإنسان الذي لم يتغير

أنهى حياته مثلما بدأها.. أي سار فخر الكائنات على المنوال نفسه وضمن المقاييس نفسها والمبادئ نفسها فلم يتغير ولم يتبدل.. مثلما تصرف في مكة -وليس معه سوى امرأة وصبي وعبد وحر- تصرف في حجة الوداع وهو يخاطب أكثر من مائة ألف، بل إن تواضعه زاد وهو في أوج النصر والفتح المبين.

هو القائد الوحيد الذي لم يتغير ولم يتبدل طوال حياته.. تأملوا كيف لم يغير سلوكه وتصرفه أمام الذين كانوا السبب في الأذى والشدائد التي تعرض لها طوال حياته. وعندما توسعت حلقات أصدقائه وتعددت بتقديم الدعوة والتحاق أناس جدد ذوي قابليات كبيرة، لم ينس أصدقاءه السابقين أبداً، بقي كما كان سابقاً.

د- التواضع الرائع

كان جالساً في أحد الأيام يأكل مع أصدقائه، فمرت به امرأة بذيئة اللسان، فلما رآته قالت: "انظروا إليه يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد." فقال النبي ﷺ: «وأيُّ عبد أعبد مني؟» قالت: "ويأكل ولا يطعمني." قال: «فكلي.» قالت: "ناولني بيدك!" فناولها

(١) البخاري، التوحيد ٣٦؛ مسلم، الإيمان ٣٢٦.

(٢) مسلم، الفتن ٢٢-٢٥؛ المسند للإمام أحمد، ٤/١.

(٣) انظر إلى مباحث الفتن والملاحم في كتب الحديث.

فقالت: "أطعمني مما في فيك" فأعطاهما فأكلت فغلبها الحياء فلم ترافث أحداً حتى ماتت.^(١)
وعن جرير أن رجلاً أتى النبي ﷺ من بين يديه فاستقبلته رعدة أي ارتجف من مهابة النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «هَوْنُ عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد.»^(٢)

وعن ابن عباس أنه كان يحدث أن الله أرسل إلى النبي ﷺ ملكاً من الملائكة مع الملك جبريل عليه السلام، فقال الملك: "يا محمد، إن الله يختبرك بين أن تكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً"، فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام كالمستشير فأومأ إليه أن "تواضع" فقال رسول الله ﷺ: «بل نبياً عبداً.»^(٣)

في هذه الأثناء كانت الغنائم والهدايا تأتيه من أرجاء الدنيا، ولكنه كان يوزع جميع هذه الغنائم والهدايا على أصحابه ولا يبقى لنفسه شيئاً منها، ولم يتغير سلوكه هذا طوال حياته، وعندما دخل مكة منتصراً وفاتحاً دخل وذقنه يكاد يلامس ظهر راحلته تواضعاً.^(٤)

عندما أقبل عليه سعد بن معاذ رضي الله عنه قال لجلسائه: «قوموا لسيدكم.»^(٥) ولكنه كان ينهى أصحابه عن القيام له ويقول: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم.»^(٦)

صلى في ليلة المعراج إماماً لجميع الأنبياء،^(٧) غير أن هذا الفضل المهدى إليه لم يغيره وقال: «لا تخيروني على موسى.»^(٨) وقال مرة: «لا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى عليه السلام.»^(٩)

ومع أن أستار الغيب رفعت مرات عديدة أمام عينيه إلا أنه عندما دخل على إحدى نساءه وعندها جوهرات يضربن بالدف يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر حتى قالت جارية: وفينا نبي يعلم ما في غد، قال رسول الله ﷺ لها: «لا تقولي هكذا، وقولي الذي

(١) مجمع الزوائد للهيتمي، ٢١/٩.

(٢) ابن ماجه، الاطعمة ٣٠؛ مجمع الزوائد للهيتمي، ٢٠/٩.

(٣) مجمع الزوائد للهيتمي، ١٩/٩-٢٠.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ٤٧/٤-٤٨.

(٥) البخاري، الاستئذان ٢٦؛ الإصابة لابن حجر، ٣٨/٢.

(٦) أبو داود، الأدب ١٥٢؛ المسند للإمام أحمد، ٢٥٣/٥.

(٧) البداية والنهاية لابن كثير، ١٣٦/٣؛ جامع البيان للطبري، ٣/١٥.

(٨) مسلم، الفضائل ١٥٩-١٦٠.

(٩) مسلم، الفضائل ١٦٦-١٦٧.

كُنْتُ تَقُولِينَ»^(١) وفي رواية أخرى: «أَمَّا هَذَا، فَلَا تَقُولُوهُ، مَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ»^(٢) أَجَلْ، هُنَاكَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ وَقَائِدٌ وَاحِدٌ لَمْ يَغْيِرْ سُلُوكَهُ وَتَصَرَّفَهُ الْمَتَنَاغَمَ طَوَالَ حَيَاتِهِ، وَهُوَ بَلَا شَكٍّ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

هـ- معرفته بالقابليات

لَمْ يَكُنْ لَهُ نَظِيرٌ وَلَا مِثْلٌ فِي اكْتِشَافِ قَابِلِيَّاتِ أَتْبَاعِهِ، فَعِنْدَمَا تَقَرَّرَتِ الْهَجْرَةُ إِلَى الْحَبْشَةِ اخْتَارَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ لِيَكُونَ أَمِيرَ الْمُهَاجِرِينَ، وَقَدْ أَثْبَتَ جَعْفَرُ ﷺ فِي حِوَارِهِ مَعَ النَّجَاشِيِّ أَنَّ اخْتِيَارَهُ كَانَ اخْتِيَارًا صَائِبًا.^(٣)

كَانَ مُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ ﷺ أَوَّلَ مَنْ أَرْسَلَهُ مَرَشِدًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ مَا قَامَ بِهِ مُصْعَبُ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ أَعْمَالٍ، وَمَا قَدَّمَ مِنْ خِدْمَاتٍ لِلدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَفْضَلَ وَأَصْدَقَ شَاهِدًا عَلَى حَسَنِ اخْتِيَارِهِ. لَقَدْ كَانَتِ الْمَدِينَةُ فِي حَاجَةٍ إِلَى رَجُلٍ رَقِيقٍ وَدَمَثِ الْخَلْقِ مِثْلَ مُصْعَبٍ، لِذَا اخْتَارَهُ الرَّسُولُ لَتِلْكَ الْمَهْمَةِ.^(٤)

وَفِي لَيْلَةِ الْهَجْرَةِ كَانَ لَا بَدَّ مِنْ وَجُودِ أَحَدِهِمْ فِي فِرَاشِهِ لَا يَهَابُ الْمَشْرِكِينَ إِذْ كَانَ مِنَ الْمَحْتَمَلِ وَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تَقَعَ عَلَيْهِ الضَّرَبَاتُ الْمَوْجُوهَةُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، لِذَا كَانَ لَا بَدَّ مِنْ اخْتِيَارِ بَطْلٍ مِثْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمَهْمَةِ.^(٥)

ثُمَّ مِنْ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَرِافِقَهُ فِي هِجْرَتِهِ وَيَصَاحِبَهُ فِي سَفَرِهِ وَيَكُونَ مَعَهُ فِي الْغَارِ؟ أَيْ شَخْصٌ كَانَ مِنَ الْمَفْرُوضِ أَنْ يَرَاهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَعَهُ؟ لَقَدْ قَرَّرَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الشَّخْصُ أَبَا بَكْرٍ ﷺ الَّذِي حَافِظٌ عَلَى مَوْقِعِ الرَّجُلِ الثَّانِي عَلَى الدَّوَامِ، كَانَ الرَّسُولُ ﷺ قَدْ عَيْنَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَالْمَوْقِعِ مِنْذُ بَدَايَةِ الْأَمْرِ، وَاسْتَمَرَ أَبُو بَكْرٍ فِي هَذَا الْمَوْقِعِ حَتَّى النِّهَايَةِ، ذَلِكَ لِأَنَّ اخْتِيَارَهُ كَانَ مُوَفَّقًا مِنْذُ الْبَدَايَةِ.

هَذَا، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّنَا نَجِدُ آثَارَ بَصْمَاتِهِ فِي اخْتِيَارِ جَمِيعِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِهِ.. أَيْ كَانَ مِنَ الْمَفْرُوضِ أَنْ يَكُونَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ هُوَ الْأَوَّلُ وَعُمَرُ ﷺ هُوَ الثَّانِي وَعُثْمَانُ ﷺ هُوَ الثَّالِثُ وَعَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ هُوَ الرَّابِعُ، ذَلِكَ لِأَنَّ حُدُودَ آجَالِ هَؤُلَاءِ الَّتِي عَيْنَتْهَا يَدُ الْقَدَرِ كَانَتْ تَقْتَضِي هَذَا التَّسْلُسَ، فَالْتَصَرَّفَ الْإِلَهِيُّ ظَاهِرًا فِي هَذَا الْأَمْرِ.

(١) البخاري، مغازي، ١٢، النكاح، ٤٨.

(٢) الترمذي، النكاح؛ ٦؛ ابن ماجه، النكاح ٢١.

(٣) المسند للأمام أحمد، ٢٠١/١-٢٠٢.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ٧٦/٢.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام، ١٢٦/٢-١٢٧.

كان موفقاً في كل اختيار له بدءاً من تسليمه السيف إلى أبي دُجانة ﷺ^(١) وانتهاءً بمهمة زرع الشقاق بين قريش وبين اليهود التي أعطاها إلى نعيم بن مسعود ﷺ^(٢) كان يتصرف دائماً بمبدأ إعطاء كل مهمة إلى أهلها.

كان حذيفة أهلاً لحفظ الأسرار فأتمنه على بعض أسرارهِ^(٣) وكلف عمه العباس ﷺ بأمور المخابرات في مكة، وقام عمه بهذه المهمة خير قيام^(٤).

اختياره للقواد واختياره للرسل الذين أرسلهم إلى الملوك والرؤساء.. اختياره للطلاب لكي يكونوا رجال علم في "الصُّفَّة".. اختياره لعمال جمع الزكاة، كل هذه الاختيارات كانت صائبة كما أثبتتها الأيام.

أجل، إن من المهم جداً لكل قائد أن يعرف تماماً نوعية الأشخاص الذين يعهد إليهم القيام بمهام معينة، والتاريخ يذكر الأخطاء الكثيرة والكبيرة التي اقترفها الكثير من الزعماء والقادة في هذا الأمر، فكم من قائد خانهُ من قربه إليه وجعله من خاصته.

استخدم الرسول ﷺ الأرقم بن أبي الأرقم ﷺ في الأمور المالية، واستمر في خدمته هذه للشؤون المالية في عهد أبي بكر وعمر ﷺ، أما في عهد عثمان ﷺ، الذي كان يخص من ماله الخاص بعض أقربائه بالعطاء، مما أدى إلى انتشار شائعة بأنه يفضل بني أمية على سائر المسلمين، فقد جاء الأرقم بن أبي الأرقم إليه وسلمه مفاتيح الخزينة قائلاً له بأنه لا يستطيع العمل في مثل هذه الظروف وفي ظل هذه الإشاعات^(٥).

و- محبوب القلوب

كان قائداً يحب الناس ويحبه الناس، إلى درجة أن كل فرد كان يحس أنه هو الأقرب إلى قلبه، كما يحس أنه هو الأكثر حباً له.

كان يحب.. فكم من مرة التفت في مسجده قبيل وفاته واستعرض وجوه أصحابه ودمعت عيناه، لأنه كان يعرف جيداً أنه وإن التقى بهم بعد مدة إلا أنه سيفارقهم قريباً، ولن يراهم مرة أخرى في عالم الشهادة.. لقد آن رحيله إلى الرفيق الأعلى، فأهل السماء كانوا

(١) مسلم، فضائل الصحابة ١٢٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٢٤٠/٣.

(٣) البخاري، المناقب ٢٠.

(٤) الإصابة لابن حجر، ٢٨١-٢٩.

(٥) الإصابة لابن حجر، ٢٨١-٢٩.

ينتظرونه بشوق، غير أنه لكونه أنموذج الوفاء، ذرف الدموع حزناً على مفارقة أصحابه الأحبة، ولكن منظر أصحابه وهم يصلون كان يملأ قلبه فرحاً وحبوراً وتجد البسمة طريقها إلى شفثيه المباركتين.^(١)

كان يحب أصحابه ويصونهم ويقول: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدِهِم ولا نَصِيفَهُ»،^(٢) ويقول: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»،^(٣) وأحاديث أخرى أيضاً تشكل دليلاً على هذا الحب وهذه الصيانة.

ثم إنه كان محبوباً من قبل الآخرين.. محبوباً بحب لا يوصف، بحب يسري في شغاف القلوب.. ثم ألم يكن حبه دليلاً على كمال إيمان المؤمن؟^(٤) والصحابة الذين وصلوا إلى ذروة الإيمان وصلوا كذلك إلى ذروة حب الرسول ﷺ.

عندما أحضر كفار قريش الصحابي حُبَيْب ﷺ الذي أسروه في ماء الرجيع إلى موضع الإعدام سأله: "أتشتهي أن يكون محمد مكانك، وتكون أنت آمناً في بيتك؟" فلو قال نعم، لربما أطلقوا سراحه ولكنه أجابهم: "لا والله، لا أحب أن يشاك شوكة في قدمه."^(٥)

بعد انتهاء معركة أحد أرسل الرسول ﷺ رجلاً ليوثق سعد بن الربيع ﷺ، فوجده جريحاً جرحاً بالغاً، فسأله عن حاله فقال: "أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ سلامي وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته. وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف."^(٦)

كانت الصحابية سُمَيْراء تبحث عن رسول الله ﷺ في ميدان المعركة وتسأل: "أين رسول الله؟" وعندما أشاروا إلى مكانه ورأته بأَم عينها قالت: "كل مصيبة بعدك جَلَل!"^(٧) أي هينة، هذا رغم استشهاد زوجها وابنها وأبيها في تلك المعركة.

وبينما كانت نسيبة الأنصارية رضي الله عنها بيدها السيف تدافع عن الرسول ﷺ أشار

(١) البخاري، المغازي ٨٣؛ مسلم، صلاة ٩٨؛ مجمع الزوائد للهيتمي، ٢٥-٢٤/٩.

(٢) البخاري، فضائل أصحابي النبي ٥؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢٢١-٢٢٢.

(٣) كشف الخفاء للعجلوني، ١٣٢/١.

(٤) البخاري، الإيمان ٨؛ مسلم، الإيمان ٦٩.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير، ٧٦/٤.

(٦) البداية والنهاية لابن كثير، ٤٤/٤.

(٧) السيرة النبوية لابن هشام، ١٠٥/٣.

الرسول ﷺ إلى ابنها الجريح وطلب منها مساعدته وتضميد جراحه.. كانت قد نسيت أن لها ابناً مقاتلاً وأنه جرح.. أسرعت إليه وضممت جراحه ثم قالت له: "قم يا بني ودافع عن رسول الله." (١)

وتعرض أبو بكر الصديق ﷺ إلى الضرب حتى أغمي عليه، لأنه دافع عن الرسول ﷺ ودعا إليه.. وحملت بنو تيمم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله وهم لا يشكون أنه ميت، وجعل أبوه وبنو تيمم يكلمون أبا بكر وهو لا يجيب حتى كاد النهار أن يولي، ثم تكلم فكان أول ما قاله أنه سأل عن حبيبته ﷺ: "ما فعل رسول الله؟" فقاموا عنه، وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه. فلما خلعت به ألحّت عليه وجعل هو يقول: "ما فعل رسول الله ﷺ؟" فقالت: والله مالي علمٌ بصاحبك، وخلف ألا يأكل شيئاً أو يشرب حتى يسمع عنه. (٢)

هذه الأمثلة ومئات غيرها تبين أن الرسول ﷺ كان محبوب قلوب صحابته الذين كانوا مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيله.. كما أصبح محبوب أمته جميعاً. كان محاطاً بهذه الهالة من المحبة الخالصة، لذا لم يكن هناك حرس أو خدم على بابه (٣) لأنه كان يثق فيمن حواليه. كان الجميع يحبونه، وكان هو يحب الجميع.

ز- كان ﷺ معصوماً منذ البداية

كان ماضيه نقياً طاهراً، فلم يقترب شيئاً يمكن أن يعد عيباً أو قصوراً.. كان أبو بكر ﷺ صديق طفولته وصباه، فلو رأى فيه عيباً أكان يسارع إلى تصديقه أول ما أعلن نبوته؟ ألم تعجب أمنا خديجة رضي الله عنها بأخلاقه، فاخترته مع أن العديدين طلبوا الزواج منها؟ وكما تقول الآية الكريمة: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ (النور: ٢٦)، فالزوجة الطاهرة خديجة رضي الله عنها بذلت كل ما في وسعها لتكون الزوجة اللائقة لهذا الشخص الطاهر، وبقيت كذلك طوال حياتها.

كان خلقه الرفيع وخصاله الحميدة معروفة للجميع حتى قبل بعثته ﷺ حتى لقبه أهل مكة بـ"الأمين" فاستقامته ووفاءه بالعهد كان معروفاً للجميع. كان أبو جهل وأبو لهب يعرفان هذا ويعترفان به، وعداوتهما له واعتراضهما عليه كان سبب آخر، وإلا فإن جميع أعدائه كانوا يعترفون بأنه صادق في كل ما يقوله.

(١) الإصابة لابن حجر، ٤/١٨٨.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١٨٨.

(٣) البخاري، الجناز ٣٢؛ مسلم، الجناز ١٥.

كان الطهر والنقاء والبعد عن كل إثم صفة من صفاته.. كان معصوماً على الدوام، لذا لم يقترب أي خطيئة. وسنرجع إلى صفته هذه فيما بعد بالتفصيل.

يقول "سير وليام موير": "إن محمداً شخصية ممتازة ومثال للفضيلة.. لم يقترب طوال حياته أمراً يستنكف عنه أي رجل فاضل.. بينما استطاع هو أن يؤسس وأن يهدم دولاً، وفي أثناء معترك حياته الحافلة حافظ على فضائله وعاش حياة نظيفة نقية."

كان إنساناً مبرئاً من الضعف الإنساني ومنزهاً عنه.. ذا قابليات عديدة واستعدادات عالية، ولم يكن إلا لنبي أن يجمع كل هذه القابليات السامية، ذلك لأن وجود كل هذه القابليات وبهذه المستويات الرفيعة لم تكن ضرورية لأشخاص عدا الأنبياء. فمثلاً قابليته في التجارة كانت تؤهله لأن يكون أفضل تاجر، ولكن قابلياته السياسية والعسكرية كانت تبقى معطلة وغير مستعملة، هذا علماً بأنه إلى جانب كونه تاجراً جيداً كان إدارياً ممتازاً وعسكرياً عبقرياً، ولكن من الخطأ حتى حصره في مثل هذه المهن، ذلك لأنه خلق لكي يستوعب الإنسانية بأجمعها ويحتضنها. ومثل هذه الاستعدادات والقابليات لا توهب إلا لنبي أو رسول، وإلا فإن وجود استعداداته الأخرى كانت تعد آنذاك عبثاً والله تعالى منزّه عن العبث.

كان ذروة في كل خير وفضيلة.. وكان هذا ضرورياً له لكي يبقى فوق كل قابليات واستعدادات أتباعه ويكون مرشداً وقُدوة لهم. كان أبوبكر رضي الله عنه يأتي بعده من ناحية القابليات، ولكنه كان تابعاً له، بل من أخلص تابعيه والمرتبطين به.

ح- النتيجة

قمنا بشرح القابليات التي يجب توفرها في أي زعيم، ثم نظرنا إلى الرسول ﷺ من هذه الزاوية، وعلمنا أنه الشخص الوحيد الذي توفرت فيه كل هذه الصفات، وليس هناك أي شخص آخر استطاع الاقتراب منه لكي نتخذه مقياساً في هذا الأمر. ونصل من هذا إلى نتيجة مفادها أن خصال الرسول ﷺ وصفاته كانت في الذروة، فقد خلقه الله هكذا وزوده بصفات الخلق السامي.. أي لم يكن هذا السمو سموً بالنسبة للآخرين، بل سموً ذاتياً.

كان قائداً عسكرياً كبيراً، حتى أنه من الخطأ التعبير عن صفته وفطنته الكبيرة هذه بكلمة "العبقرية"، وإن قصور اللغة وعدم كفايتها هي التي تقودنا إلى ارتكاب مثل هذه الأخطاء دون تعمد منا فنسند إليه صفة العبقرية العسكرية، لأنه لا يمكن شرح الجانب العسكري للرسول ﷺ بهذه الكلمة، لأن هذا الجانب كان مرتبطاً بالوحي الإلهي وبفطنته كرسول، وهذا هو ما

أردنا التأكيد عليه على الدوام.. أي التأكيد على أن جوانبه هذه أدلة على نبوته، ونحن نقترّب من جميع المسائل المتعلقة بسيدنا ﷺ من هذا المنطلق سواء أذكرنا ذلك صراحة أم لا. كان عسكرياً بصفات مميزة ومستثناة، بحيث أنه كان متفوقاً على العسكريين المحترفين الذين نشأوا في السلك العسكري منذ بداية حياتهم، إذن، فلم يكن الجانب العسكري فيه من نفسه لأنه كان شخصاً أمياً لم ير حرباً من قبل سوى حرب الفجار التي كانت نزاعاً محدوداً، ولم يشترك في تلك الحرب بشكل فعلي بل قام بنقل السهام إلى أعمامه. ولكنه بدأ الآن يدير معارك لها استراتيجياتها وينتصر في جميعها ويتفوق فيها تفوقاً يعجز عنه كبار القادة العسكريين المحترفين، وهذا من أدلة نبوته، ذلك لأنه:

أولاً: رسم بأمر من الله تعالى خط دعوة واضحة.. كان هدفه واضحاً وبيّناً، كان عليه أن ينشر الحق ويزيل جميع العقبات والعوائق أمامه، وصرف كل حياته من أجل تحقيق هذه الغاية، واقترب هو وأتباعه يوماً فيوماً من هذه الغاية وحدثت تطورات كبيرة ولكن الهدف بقي هو نفسه ولم يتغير ولم ينحرف عنه، فلم تكن الوصولية شيمة له ولا لأتباعه النجباء الميامين. والذين دققوا تاريخ فترة نبوته التي استمرت ثلاثة وعشرين عاماً يعرفون أنه لم يغير شيئاً مما قاله منذ بداية أمر نبوته بل استمر يقوله حتى نهاية حياته.

لم تكن الحرب غاية من غاياته في أي مرحلة من مراحل حياته، بل كانت الوسيلة الأخيرة التي يطرق بابها، إذ كان يقدم البدائل للطرف الآخر على الدوام، أما البديلان الأولان فكان إما الدخول إلى الإسلام أو إعطاء الجزية،^(١) فمن قبل أحد هذين البديلين لا يجوز في الإسلام مقاتلته.

كان النبي ﷺ يذكر القواد والجنود الذين أرسلهم إلى جهات عديدة بعدم التعرض أبداً للنساء والأطفال والشيوخ ومن لا يحمل السلاح،^(٢) وعندما أخطأ خالد بن الوليد وأسماء بن زيد وقتل بعض من توهم أنهم أظهروا الإسلام خوفاً ووسيلة للنجاة بأنفسهم فإن الرسول ﷺ عاتبهما عتاباً مرّاً.^(٣) أجل، لقد عين هدفاً معيناً لم يسر هو وأصحابه فقط نحوه، بل سار نحوه جميع الذين جاءوا بعده بعدة عصور والتزموا بهديه.

ثانياً: كان الرسول ﷺ يتحرك وفق شعاره "الهجوم أحسن دفاع". صحيح أنه اضطر

(١) الترمذي، السير ٤٨.

(٢) البخاري، أحكام، ٣٥؛ الترمذي، السير ٤٨؛ النسائي، القضاة ١٧.

(٣) مسلم، الإيمان ١٥٨؛ أبو داود، الجهاد ٩٥.

للدخول في بعض الحروب الدفاعية، ولكنها كانت جميعها حروباً تهية الفرصة والأرضية الصالحة للهجوم.

ثالثاً: كانت تصرفاته جميعها على بصيرة، فلم يدع شيئاً للحظ بل كان يحسب لكل خطوة حسابها. والدليل على هذا أنه لم يخط في حياته خطوة نحو الورا، فمثلاً أراد الصحابة مرة أن يعرفوا عدد جيش العدو، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك إلى أن قبضوا على شخص وأكرهوه على الكلام، غير أن الرجل عندما كان يصدّق لا يصدّقه ويبدأون بضربه، وعندما يكذب إرضاء لهم يدعونه، فأمر الرسول ﷺ أن يدعوا الرجل وألاً يؤذوه، ثم استدعاه إليه وسأله عن عدد الإبل الذي ينحرونه كل يوم للطعام، واستتج من هذا العدد تعداد جيش العدو، وأخذ أهبطه له ووضع استراتيجيته حسب هذه المعلومات،^(١) إذن، فلم يكن يخطو خطوة عشوائية، ويدقق أحوال وأوضاع عدده وعدد جيشه لكي يأخذ لكل أمر أهبطه، وهذه هي إحدى الخصال الضرورية لكل قائد عسكري.

رابعاً: كان يتبع مبادئ معينة في تحركاته، ولم يدع هذه المبادئ، فقد كان مثلاً يحدّد الوقت الذي يقرره للهجوم على الأعداء، وغزوة خيبر مثال واضح على هذا، فقد أظهر أنه متوجه نحو غطفان ولكنه سار إلى خيبر، وظنت غطفان أنه سائر إليها فتحصنت خلف أسوارها، واعتقدت خيبر أن الأمر لا يهمها وبعيد عنها، لذا لم تتخذ أي احتياط، وبينما كانت تفرك عينها من أثر النعاس في الصباح الباكر لذلك اليوم قام المسلمون الذين كانوا قد أدوا صلاة الصبح ودخلوا إلى أجواء عالم روحي بمباغتهم، وكان هذا نتيجة تخطيط رائع للرسول ﷺ الذي كان يحل كل المشاكل وكأنه يشرب فنجاناً من القهوة.^(٢)

ودخل مكة بالمبدأ نفسه، إذ لم يكن حتى أبو بكر رضي الله عنه يعلم وجهة الرسول ﷺ. وكانت مفاجأة أهل مكة كبيرة، وعندما علموا بالموقف لم يجدوا مجالاً للهرب.^(٣) فقد التزم في الأمثلة التي أعطيناها سابقاً وفي جميع غزواته الأخرى التي لم نذكرها والتي وردت في كتب السيرة بهذا المبدأ.

خامساً: كان يختار الوقت المناسب للدخول في صدام مع العدو بحيث يكون وقت المعركة ومكانها في صالح المسلمين وفي غير صالح العدو، ففي معركة بدر نزل

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٢٦٩/٢.

(٢) البخاري، الصلاة ١٢؛ مسلم، الجهاد ١٢٠؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣٤٢/٣ وما بعدها.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ٤٢/٤.

المسلمون في موضع يتوفر فيه الماء بينما تم حرمان المشركين من الماء.^(١)
سادساً: كان يستعمل عامل الزمن استعمالاً جيداً، فقد أطال زمن معركة الخندق حتى هجم الشتاء على الأعداء فاضطروا إلى التراجع، كما كان موضع المعركة في صالح المسلمين.^(٢) كما أن توقيت معركة حُنين كان توقيتاً رائعاً، فلو حصل هناك أي تأخير لما وجد المسلمون فرصة للهجوم بل لاضطروا إلى الدخول في معركة دفاعية تحت ظروف غير مواتية لهم. ولكن رسول الله ﷺ أعطى أوامره للتوجه إلى الأعداء في الوقت المناسب، فجعل عامل الزمن في صالح المسلمين، كما قام بسحب رماة العدو المتحصنين من أماكنهم إلى وسط المعركة، فقد تظاهرت القوة المتقدمة للمسلمين بالانسحاب فتبعهم الرماة الذين كانوا متحصنين جيداً وكانوا يمثلون أقوى قوة وسلاح للعدو، ولكنهم عندما تركوا أماكنهم المحصنة وخرجوا إلى قلب المعركة فقدوا هذه الميزة ولم تعد سهامهم تفيد كثيراً لأنهم دخلوا في معركة مواجهة قريبة حيث يكون العامل المهم فيها للسيف.. وكان توقيت الهجوم توقيتاً موفقاً.

سابعاً: لا شك أن تأمين الأرزاق والمهمات للجيش من أهم الضرورات لجيش محارب، ولم يحدث في جميع غزوات الرسول ﷺ أن قام جيشه بترك القتال والانسحاب منه بسبب نقص في تموين هذه الأرزاق والمهمات. والقرآن الكريم يدعو الناس في مئات من آياته للإنفاق وإلى الجود وهياهم لهذا، واستطاع الرسول ﷺ تقييم هذا الاستعداد عند المسلمين أفضل تقييم، فالجهاد في الإسلام يكون بالنفس وبالمال.

ط - التلاميذ الذين رباهم الرسول ﷺ

تناولنا حتى الآن بعض سمات التكتيك الحربي للرسول ﷺ وبعض سمات إجراءاته الأخرى، غير أنه كَوْن جيشاً لا مثيل له في زمن قصير، هذا الجيش الذي استطاع وفي فترة قصيرة فتح أرجاء المعمورة. لذا، فهو شخص لا مثيل له ولا نظير في مجال تكوين الجيوش، وتهيئة الجنود والمقاتلين، ذلك لأنه هو المنشئ الأول للجيش الإسلامي، وعلى يده المباركة نشأ هذا الجيش المبارك، أي أنه لم يأت على رأس جيش موجود سابقاً كما هي الحال لدى القواد العسكريين الآخرين.

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٢٧١/٢-٢٧٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، ١١٧/٤.

وأهم ما يسترعي الانتباه أن الجيش الذي أعده الرسول ﷺ كان يتمتع بهذه الصفات المهمة الثلاث:

١. إعداد جيد.

٢. خلق ممتاز وتربية جيدة.

٣. إيمان في الذروة، وشعور وإحساس بالطاعة والولاء.

وعندما قال الرسول ﷺ: «ألا إن القوة الرمي» فإنه كان يشير إلى الصناعة العسكرية حتى يوم القيامة،^(١) وهو من أقواله النيرة. وطبق كلامه هذا تطبيقاً فعلياً في عهده فاهتم بالرمي، وهناك أحاديث كثيرة تشوّق على الرمي وعلى إتقانه.^(٢) ومن بين هذه الأحاديث هناك حديث يجلب النظر وهو قوله لسعد بن أبي وقاص في أثناء الحرب: «إرم فذاك أبي وأمي»^(٣) ذلك لأن الرسول ﷺ قال للكثيرين "فذاك أبي" أو "فذاك أمي"، ولكن لم يقل لأحد سوى سعد "فذاك أبي وأمي".

كان الرسول ﷺ يهيء جيشه بنفسه، وفي أوقات السلم يشجعهم على أداء الفعاليات الرياضية ويرتب بعض المسابقات بينهم، حتى أنه اشترك في بعضها،^(٤) كما أن ترتيبه لمسابقات المصارعة بين الفتیان الذين لم يبلغوا بعد سن القتال دليل على مدى اهتمامه بالفعاليات الرياضية.^(٥) كان الجيش الإسلامي في ذلك العهد قوياً من ناحية التدريب البدني لأفراده ومن ناحية التخطيط الجيد للحرب.. هذا علاوة على الروح المعنوية العالية لجنوده. كان الجيش الإسلامي يتمتع بأخلاق تغبطه عليها الملائكة، إذ ربي الرسول ﷺ جنوداً أصبحوا مصدر الأمن والأمان لكل مكان وصلوا إليه، فلم يحدث أي حادث اعتداء على عرض أحد في أي مكان تم فتحه من قبل الصحابة. أجل، كان هذا هو مقدار الوعي الأخلاقي والعفة التي بلغها الجيش الإسلامي. ولا شك أن هذه الأخلاق الحميدة وهذه العفة كانت نابعة من عقيدتهم، ولم يكن هناك أي فرد يسلك سلوكاً مغايراً لعقيدته، لأن هذا من موجبات الإيمان ونتيجة من نتائجه، والقرآن الكريم يشرح هذا فيقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ

(١) مسلم، الإمارة ١٦٧؛ أبو داود، الجهاد ٢٣؛ ابن ماجه، الجهاد ١٩.

(٢) البخاري، الجهاد ٨٦، المناقب ٤؛ الترمذي، فضائل الجهاد ١١؛ أبو داود، الجهاد ٢٣.

(٣) البخاري، الجهاد ٨٠؛ مسلم، فضائل الصحابة ٤١.

(٤) البخاري، الصلاة ٤١، الجهاد ٥٧؛ مسلم، الامارة ٩٥؛ النسائي، الخيل ١٦؛ أبو داود، الأدب ٨.

(٥) البخاري، الصلاة ٤١، الجهاد ٥٧؛ مسلم، الامارة ٩٥؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٧٠/٣.

إِخْوَانُهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ (المجادلة: ٢٢).

كانوا أصحاب إيمان عميق لا تمنعهم أي عقبة أو صعوبة من بلوغ أهدافهم، فقد وقف أمامهم في أثناء بعض الحروب إخوانهم^(١) أو آبائهم وأعمامهم^(٢). مثل هذه المواقف التي ينشل أمامها الإنسان لم تستطع أن توقف الصحابة ولا أن تقذف في قلوبهم التردد والإحجام، بل قاموا بتنفيذ الأوامر الصادرة إليهم والتوجه إلى الهدف المرسوم لهم. أجل، قام الرسول ﷺ بتشكيل جيش لم يدر حتى ذلك اليوم بخلد العالم مثيل له، فسيوف جنود هذا الجيش كان من الممكن أن تقتل آباءهم أو إخوانهم أو أقرباءهم، وكان من الممكن أن يؤدي أي تردد في هذا الخصوص إلى شل حركة الجيش كله، بينما لم يتردد جندي واحد في جيش رسول الله لحظة واحدة أبداً.

تقابل أبو عبيدة بن الجراح ؓ في معركة بدر مع والده، فتنحى وحاد عنه، ولكن والده تعقبه حتى اضطره إلى منازلته وقتله، فلم يكن وقوف والده أمامه في المعركة ليحول بينه وبين المضي في أداء مهمته، فالدعوة هي الدعوة، فمن وقف أمامها يجب إزاحته عن الطريق - هذا إذا استثنينا بعض الحالات التي تتطلب بعض الرحمة واللين - ولم يكن هذا التصرف مقتضراً على أبي عبيدة ؓ بل كان الآخرون مثله^(٣).

وهذا عبد الرحمن بن أبي بكر ؓ شهد معركة أحد مع المشركين ورأى والده فتجنبه، وبعد أن أسلم قال له: قد رأيتك يوم أحد فصفحتُ عنك، فقال أبو بكر ؓ: "لكني لو رأيتك لم أصفح عنك."^(٤)

كان الصحابي عبد الله بن عبد الله بن أبي ؓ مغتماً أشد الغم مما فعله أبوه عبد الله بن أبي بن سلول ويعلم أنه استحق عقوبة الموت، غير أنه كان كثير التوقير لوالده، فأتى رسول الله ﷺ وهو يظن أنه أمر بقتل والده فقال له:

"يا رسول الله! إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنتَ فاعلاً فمؤلي به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمتُ الخرجُ ما كان بها من رجل أبرَّ بوالده

(١) المستدرک للحاکم، ٤٧٥/٣.

(٢) الإصابة لابن حجر، ٢٥٣-٢٥٢/٢.

(٣) الإصابة لابن حجر، ٢٥٣-٢٥٢/٢.

(٤) المستدرک للحاکم، ٤٧٥/٣.

مني، وإني أخشي أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار." (١)

كان عبد الله بن عبد الله بن أبي صحابياً جليلاً، ولكن والده كان رأس المنافقين، ولكن الرسول ﷺ لم يشأ قتل هذا المنافق، بل أمر ابنه أن يبر أباه ويحسن إليه. وقد سبق وأن ذكرنا أن هذا الصحابي قال لأبيه بأنه لن يسمح له بدخول المدينة حتى يقول: "إنني أنا الأذل، ومحمد ﷺ هو الأعز"، ذلك لأن أباه كان قد قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذل، حيث وصف نفسه بأنه هو الأعز والرسول ﷺ هو الأذل. -حاشاه- (٢)

وكان ابنه يرغب أن يبرهن أن العكس هو الصحيح.

لقد آمن الصحابة ﷺ بأنه ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٤٥)، لذا كانوا يتجولون في ساحات القتال دون خوف أو وجل، وإلا فكيف يمكن تفسير لا مبالاة أبي دُجانة ﷺ في ساحة القتال؟ (٣)

كان علي بن أبي طالب ﷺ كثيراً ما يمرض، ولكنه كان يطمئن أهله وأصدقاءه القلقين عليه بأنه لن يموت من مرضه هذا، لأنه كان يؤمن إيماناً عميقاً بأنه لن يموت إلا عندما تتخضب لحيته من دم رأسه مثلما أخبره الرسول ﷺ. (٤)

قطعت أذن عمار بن ياسر ﷺ في إحدى المعارك وبدأت الدماء تنزف بغزارة، ولكنه كان يطمئن القلقين على حياته بأنه لن يموت من هذا النزيف لأن رسول الله ﷺ قال له: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية، عمار يدعوهم إلى الله ويدعونه إلى النار» (٥) كان متأكداً من هذا ولم يكن يشك من مصيره هذا.

كان هذا الإيمان هو الذي يقلب جميع حسابات الأعداء ويفشل خططهم. وهذا الإيمان هو الذي يفسر الشجاعة الكبيرة التي تدفع إنساناً إلى الخوض في مياه المحيط ليجاهد في سبيل الله. (٦)

ولا أدري أيجب ذكر طاعة الصحابة للرسول ﷺ..؟ طاعتهم له من البديهييات فما أن

(١) مجمع الزوائد للهيتمي، ٣١٨/٩؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٧٩/٤-١٨١؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣٠٤/٣-٣٠٥.

(٢) البخاري، المناقب ٨؛ مسلم، البر ٦٣، صفات المنافقين ١.

(٣) مسلم، فضائل الصحابة ١٢٨؛ المسند للإمام أحمد، ١٢٣/٣؛ مجمع الزوائد للهيتمي، ١٠٩/٦.

(٤) المسند للإمام أحمد، ١/١٠٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٥٨/٧-٣٥٩.

(٥) البخاري، الصلاة ٦٣؛ مسلم، فتن، ٧٠؛ الترمذي، المناقب ٣٤؛ كنز العمال للهندي، ٥٣٦/١٣-٥٣٧.

(٦) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١٠٦/٤.

نتذكر الصحابة رضي الله عنهم حتى نتذكر معنى الطاعة الكاملة، ولما كان هذا موضوعاً مستقلاً آخر فلا نخوض فيه هنا. ألمنا فيما سبق بعض الإلمام بالأهمية التي كان الرسول ﷺ يوليها للتدريب العسكري، ولكي يكون الختام مسكاً فسورد هنا حديثين وآية.

يقول الرسول ﷺ: «علموا أبناءكم السباحة والرمي»^(١)، ويقول: «من عَلِمَ الرَّمْيَ ثم تركه فليس منا، (أو) قد عصي»^(٢)، ويأمرنا ربنا: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُزْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠).

(١) كنز العمال للهندي، ٤٤٣/١٦؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٦٨/٢.

(٢) مسلم، الإمارة ١٦٩؛ أبو داود، الجهاد ٢٣.